مقاتل بن سليمان والبلاغة القرآنية

د٠ سعد عبد العظيم محمد*

مقاتل بن سليمان البلخى (٨٠ - ١٥٠ هـ) رائد من الرواد الأوائل ، الذين كان لهم فضل كبير فى نشأة من علوم العربية عامة وعلوم القرأن الكريم خاصة ٠ ولاغرو فهو رائد فى علم التفسير ؛ وفى علم اللغة ، وفى علم النحو ، وفى تأويل متشابه القرآن ومشكله ، وفى علم كليات القرآن الكريم ٠ وإذا تذكرنا أن البلاغة العربية نشأت فى أحضان العلوم القرآنية والعلوم اللغوية والعلوم الأدبية ٠، وكانت مجرد ملاحظات ومباحث متناثرة فى كتب هذه العلوم ، وبخاصة العلوم القرآنية ، أمكننا القول بأن مقاتل بن سليمان رائد من رواد البحث البلاغى ، فآثاره التى وصلت إلينا تحمل الكثير من التحليلات والمباحث والقضايا البلاغية (١) ٠

---

* مدرس بقسم البلاغة والنقد الأدبى والأدب المقارن بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة٠

(١) الاشباه والنظائر - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٤ - الطبعة الثانية ص٦٥- ٧٧ ٠

وعلى الرغم من هذه المكانة العلمية الرائدة لمقاتل لم ينل ما يستحقه من البحث العلمى ، فإذا استثنيا تلك المقدمة التى كتبها الدكتور عبد الله شحاته لكتاب مقاتل " الاشباه والنظائر فى القرآن " التى أشاد فيها بريادة مقاتل فى علم التفسير(١) ، وإذا استثنيا تلك الإشارة السريعة للدكتور أحمد مختار عمر عن الكتاب السالف الذكر عند حديثه عن المشترك اللفظى والأضداد(٢) ، فإننا لانجد أحدا ـ فيما نعلم ـ تناول بالبحث والدراسة جهودا هذا العالم الرائد ، ومن ثم أردت من خلال هذا البحث أن أبرز مكانته فى هذه المجالات المختلفة ٠

مقاتل وعلم التفسير :

يعد مقاتل صاحب اول تفسير كامل للقرآن الكريم (٣) ــ وصل إلينا ــ فقد كانت التفاسير قبله لاتتعرض إلا للآيات التى ورد فيها أثر عن أول مفسر للقرآن الكريم ، وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو عن صحابته وتابعيهم ـ رضى الله عنهم أجمعين فقد كانت هذه التفاسير تتسم بالنقل ، أما تفسير مقاتل فقد جمع بين النقل والعقل ، وسن سنة جديدة فى التفسير لم تكن مألوفة ، وهى تتبع سور وآيات القرآن آية آية ، مما جعل بعض العلماء ينكرون على مقاتل هذه الطريقة فى التفسير ٠

---

(١) تنقل من الهامش السابق رقم (٣) ٠

(٢) أنظر : علم الدلالة – دار العروبة – الكويت – الطبعة الأولى ١٩٨٢ ص١١٤٧ ص٢٠٠،٢٠١ ٠

(٣) أنظر مناقشة د٠ عبد الله شحاته لهذه القضية فى مقدمة كتاب "الأشباه والنظائر " لمقاتل ص٦٥–٧٧ ٠

وقد أشاد بمكانة مقاتل فى التفسير بعض العلماء ، منهم الإمام الشافعى حين يقول : " الناس كلهم عيال على ثلاثة : على مقاتل فى التفسير ، وعلى زهير بن ابى سلمى فى الشعر ، وعلى أبى حنيفة فى الكلام (١) " ٠ وحين يقول : " من أرد أن يتبحر فى تفسير القرآن فهو عيال على مقاتل بن سليمان (٢) " وعبد الله بن مبارك حيث يقول : " ياله من علم ـ أى تفسير مقاتل – لو كان له إسناد(٣) " ومقاتل بن حيان الذى قال عنه ــ حين سئل : أنت أعلم او مقاتل بن سليمان ؟ ـ : ماوجدت علم مقاتل فى علم الناس الإ كالبحر الأخضر فى سائر البحور(٤)٠ وعلى الرغم من هذه المكانة فى التفسير فإن معظم مؤرخى البلاغة فى العصر الحديث يبدأون حديثهم عن علاقة التفسير بالبلاغة بكتاب مجاز القرآن لابى عبيدة معمر بن المثنى ، الذى شرع فى تأليفه سنة سبع وثمانين بعد المائة من الهجرة النبوية الشريفة، أى بعد وفاة مقاتل بسبع وثلاثين سنة، ويبررون هذا بأن عبيدة هو أول من استخدم مصطلح المجاز(٥) ، وهم يجمعون على أن أبا عبيدة قد استخدم مصطلح المجاز بمعناه اللغوى ، حيث كان يعنى به الطرق أو الأساليب التى يسلكها القرآن فى تعبيراته (٦)٠

(٢،١) البغدادى – تاريخ بغداد دار الكتاب العربى – بيروت لبنان ١٣/١٦١ ٠

(٣) السابق ١٣/١٦٠ ٠

(٤) السابق ١٣/١٦٢ ٠

(٥) انظر مناقشة هذه القضية بين أبى عبيدة والأخفش فى كتابنا ، البلاغة العربية – مكتبة الزهراء – ١٩٩٥/٧٠-٧٣ ٠

(٦) د٠ فؤاد سزكين – مقدمة مجاز القرآن لابى عبيدة – الخانجى ودار الفكر ١٩٧٠ ص١٧ ٠

وإذا كان الحكم الفصل فى بداية علاقة التفسير بالبلاغة هو استخدام بعض المصطلحات البلاغية بمفهومها اللغوى - فى الأعم الأغلب - وبمفهومها البلاغى - فى القليل - فإن كثيرا من المفسرين قبل أبى عبيدة قد استخدموا بعض هذه المصطلحات كالتعريض والبيان والمثل - الاستعارة التمثيلية أو التشبيه التمثيلى - والكناية ، ومن هؤلاء مقاتل بن سليمان ، ومن ثم فهم أحق بالدراسة من أبى عبيدة . أضف إلى ذلك أن لمقاتل مباحث وتحليلات بلاغية على قدر كبير من النضج ، لم يكن ينقصها إلا ذكر المصطلح ، وهذا أمر يتجاوز عنه من قبل رواد البحث البلاغى ، فيكفيهم فخراً وعلما أنهم مهدوا الطريق لمن أتى بعدهم ، وما ذلك بقيل .

فمقاتل - فيما نعلم - صاحب أول ذكر لمصطلح " علم البيان فى تراثنا العربى من خلال تفسيرة للآية العشرين بعد المائة من سورة البقرة يقول مقاتل :" (ولئن اتبعت أهوءهم) يعنى أهل الكتاب على دينهم (بعد الذى جاءك من العلم) وعلم البيان (مالك من الله من ولى) يعنى من قريب فينفعك (ولا نصير) يعنى ولا مانع " (١).

لكن هذه الإشارة ليست محددة الدلالة ، فهل يعنى علم البيان كفرع من علوم البلاغة ؟ هل يعنى بالبيان مفهومه اللغوى ؟ يغلب على مقاتل أنه يستخدم "البيان" مرادفا للتفصيل أى التوضيح ومرادفا للفصل بين الخلائق(٢) ولكنه على اى حال استخدم مصطلحا من المصطلحات البلاغية لم يسبق به، ولم يستخدمه أبو عبيدة ، مما يجعله أولى منه بالدراسة والبحث .

---

(١) تفسير مقاتل بن سليمان - تحقيق د. عبد الله شحاته - مؤسسة الحلبى وشركاه ص١،ص٦٤ ،ص٦٥ .

(٢) انظر كتاب "الأشباه والنظائر" ص٢٥٩/٢٦٠ .

ومقاتل يستخدم مصطلح التعريض بمفهومه البلاغى عند تفسير قوله تعالى (ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء) بقوله : يعنى لاحرج على الرجل أن يقول للمرأة قبل أن تنقضى عدتها : إنك لتعجبيننى وما أجاوزك إلى غيرك فهذا التعريض(١) فهو قد فهم التعريض بمفهومه البلاغى وهو أن يذكر أمر ويراد غيره ، فالرجل يذكر للمرأة التى توفى عنها زوجها ولما تنقض عدتها أنها تعجبه وأنه لن يجاوزها الى غيرها ، وهو يريد خطبتها ثم الزواج منها بعد انقضاء عدتها .

ومقاتل على بصر كبير بخروج الأساليب عن معناها الحقيقى إلى معان أخر تفهم من خلال السياق القرآنى ومن ذلك قوله فى تفسير قوله تعالى (ومن أصدق من الله حديثا) يقول فلا أحد أصدق من الله حديثا إذا حدث(٢) .

فالاستفهام قد قصد به النفى . وقد يقصد به الدعاء كما فى قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام (ومن ذريتى) أى " يارب ومن ذريتى "(٣) اجعل منهم أئمة . وقد يقصد بالاستفهام السؤال أو الطلب ما فى قوله تعالى : (أنى يحيى هذه الله بعد موتها) يقول مقاتل : " لم يشك فى البعث ، ولكنه أحب ان يريه الله عز وجل كيف يبعث الموتى كما سأل إبراهيم - عليه السلام - ربه - عز وجل (أرنى كيف تحيى الموتى) فلما تكلم بذلك عزيز أراد الله عز وجل - أن يعلمه كيف يحييها بعد موتها " (٤).

---

(١) تفسير مقاتل ص١، ص١٢٢ .

(٢) السابق ٢٥٦/١ .

(٣) السابق ٦٦،٦٧/١ .

(٤) السابق ١٣٧/١ .

ومقاتل بهذا يرى أن الاستفهام من أغراضه الشك ـ كما قال بعض المفسرين عند تفسيرهم لهذه الآية ـ لكنه يخالفهم فيرى أن الاستفهام هنا للسؤال والطلب ؛ لأن عزيراً نبى من أنبياء الله ـ تبارك وتعالى ـ الذين لايشكون فى البعث لحظة واحدة ٠

ويؤيد ما ذهب إليه ان إبراهيم ـ عليه السلام – طلب الطلب نفسه من الله تبارك وتعالى ـ ولم يقل أحدا أنه شك ، وأرى أن رأى مقاتل أفضل ممن فسروا الاستفهام بالشك ؛ لأن عزيراً نبى لايجوز عليه الشك فى قدرة الله تبارك وتعالى ، ولأن سياق الآية يرجح هذا فقد قال عزير بعد أن آراه الله الآية (أعلم أن الله على كل شئ قدير) فقد عبرت الآية بالفعل المضارع الذى يفيد الحال أو الاستقبال ، ولو كان شاكا لعبرت الآية بالفعل علمت ٠

ومن تحليلات مقاتل الناضجة تفسيره لقوله تعالى (اشتروا الضلالة بالهدى) بقوله :" وذلك أن اليهود وجدوا نعت محمد ﷺ ـ فى التوراة قبل أن يبعث فآمنوا به وظنوا أنه من ولد إسحق عليه السلام ـ فلما بعث محمد ـ ﷺ من العرب من ولد إسماعيل – عليه السلام ـ كفروا به حسداً (واشتروا الضلالة بالهدى) يقول : باعوا الهدى الذى كانوا فيه من الإيمان بمحمد ـ ﷺ ـ قبل أن يبعث بالضلالة التى دخلوا فيها بعد ما بعث من تكذيبهم بمحمد ﷺ فبئس التجارة (١) فمقاتل يدرك أن الضلالة والهدى شيئان معنويان لا يباعان ولا يشتريان ، ولكن الآية جعلتهما كذلك ، فقد جعلت الضلالة شيئا يشترى والمقصود بالضلالة هنا كفر اليهود بالرسول محمد ﷺ وجعلت الهدى شيئا يباع والمقصود بالهدى الإيمان بمحمد ﷺ، وقد ذكرت الآية المشبه وحذفت المشبه به على سبيل الاستعارة المكنية ٠

---

(١) تفسير مقاتل ١/٢٤ ٠

ويزيد مقاتل الصورة البلاغية فى (اشتروا) وضوحا عند تفسيره للآية الرابعة والأربعين من سورة النساء والتى تقول عن اليهود (يشترون الضلالة) فيقول :" يشترون يعنى يختارون وهم اليهود منهم إصبع ورافع - ابنا حريملة - وهما من أحبار اليهود "(١) فهو يوضح أن البيع والشراء فى الآية ليس مقصوداً بهما معناهما الحقيقى ؛ لأن الآية شبهت تخيير اليهود بين الإيمان بمحمد ﷺ(الهدى) والكفر به (الضلالة) بالبيع والشراء ، ثم ذكرت الآية المشبه به " البيع والشراء ، وحذفت المشبه الاختيار بين الهدى والضلال ، على سبيل الاستعارة التصريحية .

أما مصطلح " المثل فيستخدمه مقاتل - فى الغالب - فى الآيات القرآنية التى تتضمن صوراً مركبة ؛ يكون المشبه والمشبه به مركبين من عناصر متعددة لايمكن فصل بعضها عن بعض ويكون وجه الشبه عقليا لايدرك إلا بتأول - كما يقول عبد القاهر - أى بطول تأمل وعمق تفكير .(٢)

ومن ذلك تفسير مقاتل للآية السابعة عشرة من سورة البقرة : (مثل المنافق اذا تكلم بالإيمان كان له نوراً بمنزلة المستوقد نارا يمشى فى ضوئها ما دامت ناره تتقد ، فإذا ترك الإيمان كان فى ظلمة كظلمة من طفئت ناره ، فقام لايهتدى ولا يبصر ، فذلك قوله سبحانه (ذهب الله بنورهم) يعنى بإيمانهم ... (وتركهم فى ظلمات) يعنى الشرك (لايبصرون) الهدى (٣).

فالصورة التى ترسمها الآية صورة مركبة لايمكن فصل بعض أجزائها عن بعض ، وهى تتركب من عدة أجزاء ، فالمنافق عندما يتكلم بالإيمان

---

(١) تفسير مقاتل ٢٤١/١ .

(٢) انظر أسرار البلاغة - محمود محمد شاكر - دار المدنى - ٢٣٨/١٩١ .

(٣) تفسير مقاتل ٢٥،٢٤/١ .

فيجنى منه بعض المنافع الدنيوية ، حتى إذا ترك الإيمان تركه الله تبارك وتعالى يقع فى الشرك الذى يبعده عن الهدى يشبه رجلا أوقد ناراً كى تضئ له طريقه فى ليلة مظلمة حالكة فهو يسير فى ضوء ناره ، حتى إذا طفئت هذه النار فإنه يصبح فى ظلمة تجعله لايستطيع أن يصل الى غايته بل يضل عنها ٠ ومن الواضح أن الصورة تحتاج إلى قد كبير من التأمل والتفكير حتى نصل إلى الغرض منها ٠ وهذا ما يسمى بالاستعارة التمثيلية ٠

أما إشارات مقاتل إلى كثير من مباحث علم المعانى فهى كثيرة جداً ، ومن أبرز هذه المباحث : مبحث التقديم والتأخير والحذف أو الاختصار ٠ ففى تفسير قوله تعالى (وإذ قال الله ياعيسى إنى متوفيك ورافعك إلى) يقول" فيها تقديم يقول رافعك إلى من الدنيا متوفيك حين تنزل من السماء على عهد الدجال ٠ يقول إنىرافعك إلى الآن ، ومتوفيك بعد قتل الدجال ٠ يقول رافعك إلى فى السماء "٠(١)

فمقاتل يفهم الآية على أن متوفيك بمعنى مميتك ، وهو يؤمن بعودة المسيح عليه السلام الى الدنيا قبل يوم القيامة وقتله للمسيخ الدجال ، وأن الله قد رفعه حيا إلى السماء ، ومن ثم فأجل عيسى عليه السلام ، سيكون بعد نزوله وقتله للمسيخ الدجال ، ومن ثم يرى أن العطف يفيد عدم الترتيب ، وكأن الآية إنى رافعك إلى ومتوفيك ٠

وفى تفسير قوله تعالى (إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا) يقول :" إن الذين آمنوا يعنى صدقوا بتوحيد الله تعالى ومن آمن من الذين هادوا ومن النصارى ومن الصابئين من آمن منهم بالله واليوم الآخر ٠ فيها تقديم " (٢) ٠

---

(١) ماسبق ١٧٣ ٠

(٢) ماسبق ٤٤،٤٣ ٠

فمقاتل يذكر أن الآية فيها تقديم دون أن يوضح ذلك ـ وهذه كانت عادته فى كثير من **الآيات** التى فيها تقديم ـ معتمدا على إدارك القارئ لما يريده هو من التفسير .

وكأنه يريد أن الطوائف **التى ذكرت فى** الآية كان ترتيبها الزمنى على هذا النحو : إن الذين هادوا **والنصارى والصابئين** والذين آمنوا من أمة محمد صلى الله عليه وسلم هى أمة **التوحيد** ، **ومن** ثم قدموا تشريفاً وتعظيما ، ثم جاء بعدهم من آمنوا من أهل الكتاب **والصابئين** .

أما التفاته إلى الحذف وبعض أسراره **البلاغية** فمنه تفسيره للآية الستين من سورة البقرة : (وإذ استسقى موسى لقومه) وهم فى التيه قالوا من أين لنا بشراب نشرب فدعا موسى عليه السلام ربه أن يسقيهم فأوحى الله عز وجل إلى موسى عليه السلام (فقلنا اضرب بعصاك الحجر) وكان الحجر خفيفا مربعا فضربه (فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا) فرووا بإذن الله عز وجل وكانوا اثنى عشر سبطا لكل سبط ، من بنى إسرائيل عين تجرى على حدة لا يخالطهم غيرهم ، فذلك قوله سبحانه (قد علم كل أناس مشربهم) يعنى كل سبط مشربهم . يقول الله عز وجل (كلوا) من المن والسلوى واشربوا من العيون ، وهو (من رزق الله) حلالا طيبا ، فذلك قوله سبحانه (كلوا من طيبات ما رزقناكم) (ولا تعثوا فى الأرض مفسدين)(١) فتفسيره للآية يشير إلى مافيها من إنجاز بالحذف ؛ اعتمادا على علم المخاطب بالمحذوف ، أو لدلالة السياق عليه .

وهو يشير كثيرا إلى حذف الصفة ، ومن ذلك تفسيره لقوله تعالى (واتقوا يوما لاتجزى نفس عن نفس شيئا) يقول : " لا تجزى نفس كافرة عن

---

(١) ماسبق ص ٢٩ .

نفس كافرة شيئا " (١) فهو قد أشار إلى الصفة المحذوفة بأنها كافرة ٠ وأرى أن تحديد الصفة على هذا النحو لا يلائم البلاغة القرآنية فى هذا الموقف ، فالعموم هنا هو المناسب للسياق ، فلن تجزى نفس كافرة عن نفس كافرة ، ولا نفس مؤمنة عن نفس كافرة ، ولا نفس مؤمنة عن نفس مؤمنة شيئا إلا بإذن الله تعالى ٠

وفى تفسير قوله تعالى (ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها) يقول : " ما ولاهم عن قبلتهم الأولى ٠ " (٢) وأرى أيضا أن التعبير لايحتاج إلى هذه الصفة، فقد وصفت القبلة بقوله : " التى كانوا عليها " فلا داعى لهذا التقدير ٠

مقاتل والاشباه والنظائر :

الوجوه والنظائر أو الاشباه والنظائر فرع من فروع علم التفسير ، له مكانة كبرى لدى مفسرى القرآن الكريم عامة والفقهاء خاصة ٠ فمقاتل بن سليمان يذكر " فى صدر كتابه حديثا مرفوعا (٣) " لا يكون الرجل فقيها كل الفقه حتى يرى للقرآن وجوها كثيرة " بل بالغ بعض العلماء ـ منهم الإمام الزركشى والإمام السيوطى فجعلا الوجوه والنظائر من أنواع معجزات

---

(١) ماسبق ص ٣٥ ٠

(٢) ماسبق ٧٣ ٠

(٣) الزركشى – البرهان فى علوم القرآن – محمد أبو الفضل ابراهيم – دار التراث ١٩٧٢-١٠٣/١ والسيوطى – الإتقان فى علوم القرآن – محمد ابو الفضل ابراهيم – الهيئة المصرية العامة ١٩٧٥-١٤٤/٢ ٠

القرآن حيث "كانت الكلمة الواحدة تتصرف إلى عشرين وجها وأقل وأكثر، ولا يوجد ذلك فى كلام البشر "٠(١)

ويعد كتاب مقاتل من أوائل الكتب التى ألفت فى هذا العلم - إن لم يكن أولها بالفعل - والأشباه أو الوجوه تعنى أن يستعمل اللفظ الواحد فى القرآن الكريم فى معان متعددة فلفظ الحرث يستعمل على ثلاثة وجوه : (٢)

الوجه الاول : الحرث بعينه ، فذلك قوله فى البقرة (ولا تسقى الحرث) يعنى الزرع الذى يزرعه الناس من الحبوب وغيرها (٣)٠

الوجه الثانى : الحرث : ثواب فذلك قوله فى عسق (من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه) يعنى من كان من الأبرار يريد ثواب الآخرة بعمله الصالح نزد له فى ثوابه (ومن كان يريد حرث الدنيا) يعنى من كان من الفجار يريد ثواب الدنيا بعمله الصالح (نؤته منها وما له فى الآخرة من نصيب)(٤)

الوجه الثالث : الحرث يعنى فروج النساء ٠ فذلك قوله فى البقرة (نساؤكم حرث لكم) يقول فروج النساء مزرعة للولد (فأتوا حرثكم) يعنى فروج النساء (أنى شئتم) يقول : كيف شئتم يقول : إن شئتم مستقبلة أو مدبرة ، أو قائمة ، أو باركة ، أو متى أخببتم من الأوقات فى الفرج حيث يكون منها الولد كما قال الله - (والحرث) - حيث كان الولد ٠(٥)

---

(١) ماسبق الأول ١٤٤/٢ - وعلى الرغم من نقل د٠ شحاته : لهذا النص فإننا لانجد له أثراً فى الكتاب المحقق ، ولانجد إشارة منه إلى عدم وجوده وسبب ذلك ، فهل صدر كتاب مقاتل قد فقد ؟ هل كتاب "الأشباه والنظائر "غير" الوجوه والنظائر" ؟

(٢) ذكر مقاتل أن الحرص على أربعة وجوه "ولم يذكر الا ثلاثاً ولم يتنبه المحقق إلى ذلك انظر ٣٢٦، ٣٢٧ ٠

(٣) الأشباه والنظائر ٣٢٦،٣٢٧ ٠

(٤،٥) السابق ٣٢٧ ٠

فالحرث ـ إذا استثنيا الوجه الثانى ؛ لانه لا يعدو أن يكون ترادفاً لغوياً سنشير إليه بعد قليل ـ لـه معنيان : معنى حقيقى أو مباشر وهو الزرع ـ الوجه الاول ـ وهو ما يسميه مقاتل " الحرث بعينه " ومعنى مجازى أو معنى غير مباشر ـ الوجه الثانى ـ فقد ذكرت الآية (النساء) وأرادت فروجهن ، وهذا ما يعرف بالمجاز المرسل ، حيث يذكر الكل (النساء) ويراد الجزء وهو " الفرج " هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ذكرت الآية الحرث ولم تذكر فروج النساء ، أى أن الآية ذكرت شيئا يتعلق بفروج النساء وهو أنه مزرعة للولد ، وهذا ما يعرف بأسلوب الكناية ٠ والذى نود الإشارة إليه هو أن مقاتلا كان من أوائل من حدد المعنى الحقيقى من بين المعانى التى تستخدم فيها الكلمة حيث قال " الحرث بعينه " وكأنه يريد أن يقول : إن للحرث معنى حقيقياً واحداً ، وما عداه من معان : إما أن يكون من قبيل الترادف اللغوى أو من قبيل الكناية أو من قبيل المجاز ٠

ولفظ " الارض " يأتى فى القرآن على سبعة وجوه هى :

الوجه الاول : الأرض : يعنى أرض الجنة ، فذلك قوله فى الزمر (وأورثنا الأرض) يعنى أرض الجنة (نتبوء منها حيث نشاء) (١)٠

الوجه الثانى : الأرض يعنى الأرض المقدسة بالشام ، فذلك قوله فى الأعراف (وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها) يعنى الأردن وفلسطين (٢)٠

الوجه الثالث : الأرض يعنى أرض المدينة خاصة ، فذلك قوله (ياعبادى الذين آمنوا إن أرضى واسعة) يعنى أرض المدينة خاصة(٣)

الوجه الرابع : الأرض يعنى أرض مكة خاصة ، فذلك قوله فى الرعد (أولم يروا أن نأتى الأرض ننقصها من أطرافها) يعنى أرض مكة خاصة ٠(٤)

(٤،١) السابق ٢٠١ ٠

الوجه الخامس : الأرض يعنى أرض مصر خاصة ، فذلك قولـه يوسف (اجعلنى على خزائن الأرض) يعنى أرض مصر خاصة (١)

الوجـه السـادس : الأرض يعنـى أرض المسـلمين كقولـه فـى الكهـف (إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض) يعنى أرض المسلمين(٢)

الوجه السابع : الأرض يعنى جميع الأرضين : فذلك قوله فى الانعـام (ومـا من دابة فى الأرض) يعنى جميع الأرض ٠٠٠ ونحوه كثير (٣)٠

فلفظ الأرض يستخدم استخدامين الاول : استخدام عام وهو الكثير فـى القرآن الكريـم ، حيـث تكـون الأرض بمعنـى جميـع الأرضيـن ، أمـا الآخـر استخدام خاص حيث يذكر اللفظ (الأرض) عاما ويراد جزء منـه وهـذا مـا يعرف بالمجاز المرسل ٠ كما فى الوجوة الستة الاولى ٠ أو تذكر الآية شيئا يعرف به البلد الـذى تتحـدث عنـه ولا تذكـر اسـم البلـد صراحـة ، وهـذا مـا يعرف باسلوب الكناية ٠ ففى آية سورة يوسف ٠ مثـلا٠ ذكـرت الآيـة أمـرا متعلقا بالبلد الذى يتحدث يوسف عليه السلام عنه ، وهو انها مقر الحكم وان خيراتها كثيرة تزيد على حاجة أهلها ، مما يجعلهم يودعون هذه الزيـادة فـى خزائن ، وهذا ما عرفت به مصر فى تلك الفترة ٠

ونود ان نشير إلى أن التوفيق لم يحالف مقاتل بن سليمان حين فسـر الأرض بالخصوص فى الوجهين الرابع والسادس ، فتاويل الأرض فى الوجة الرابـع بأنها مكة ليس صحيحا ؛ لأن مكة تحيط بها البلاد مـن كـل مكـان ، وليسـت اطراف الأرض ، ولعل هذا ما يشير اليه قوله تعالى (ولتنذر ام القرى ومن

(٢،١) ماسبق ٢٠٢ ٠

(٣) السابق ٢٠٣ ،٢٠٤ ٠

حولها) وكذلك تأويل الأرض فى الوجه السادس بأنها (أرض المسلمين) خاصة لا سند له ، والأولى ان يكون الفساد بأرض يأجوج ومأجوج ، وانه فى طريقه إلى أهل بين السدين مما يجعلهم يطلبون من ذى القرنين أن يجعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج سدا ٠

مقاتل ومشكل القرآن ومتشابهه :

مشكل القران ومتشابهه علمان من العلوم التى اهتم بها سلفنا الصالح ، من أجل الرد على شبه وافتراءات الملحدين والزنادقة من ناحية والرد على استفسارات بعض المسلمين من ناحية ثانية ، وبيان اسرار بلاغة النظم القرانى وإعجازه من ناحية ثالثة ٠ ويعد مقاتل من أوائل من الفوا فى هذين العلمين ، فله كتاب بعنوان (الآيات المتشابهات) نسمع عنه ولكننا لم نره مما جعل الدكتور عبد الله شحاته يقول : ربما كانت (الآيات المتشابهات) هى (الوجوه والنظائرفى القرآن) فيكون الكتاب واحدا واسمه متعددا(١) ٠ وأظن ان الأمر ليس كذلك فالفرق بين المتشابه و (الوجوة والنظائر) فرق واضح جدا لدى علمائنا الأجلاء عامة ، ولدى مقاتل خاصة ، وآثار مقاتل التى وصلت إلينا تشهد بذلك فما أورده الملطى فى كتابه (التنبيه والرد على أهل الاهواء والبدع) عن المتشابه والمشكل يختلف اختلافا كليا عن الوجوه والنظائر الذى حققه الدكتور عبد الله شحاته نفسه مما يدل على أن (الآيات المتشابهات) كتاب آخر غير كتاب (الوجوة والنظائر) أو (الأشباه والنظائر)٠

---

(١) الأشباه والنظائر ٨١ ٠

فالزنادقة يزعمون أن في كتاب الله جل وعلا تناقضا ، فقوله تعالى (هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون) يناقض قوله (ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون)(١) وقوله تعالى (فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون) يناقض قوله (وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون) (٢)

وهنا يورد مقاتل مقالات الزنادقة ؛ لكي يرد عليهم وليكشف تعاميهم عن المقولة البلاغية الشهيرة (لكل مقام مقال) ولذلك نراه بعد ان يورد افتراءاتهم وأكاذيبهم يعقب عليها بقوله " وليس بمتناقض ، ولكنهما في تفسير الخواص في المواطن المختلفة "(٣) فيرد على الافتراء الاول بأن قوله تعالى (هذا يوم لاينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون) خاص بأول ما يحدث بعد بعث الخلائق من قبورهم فهم لا ينطقون في ذلك الموطن (ولا يؤذن لهم فيعتذرون) ، ويظل الخلائق على هذه الحال مقدار ستين سنة ، ثم يؤذن لهم بعد في الكلام فيكلم بعضهم بعضاً ويختصمون عند الحساب ، وبعد أن يفرغ الحساب يقال لهم (لاتختصموا لدى وقد قدمت إليكم بالوعيد) .

أما الافتراء الثاني فيرد عليه مقاتل بأن قوله تعالى (فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون) يكون عندما يقوم الخلائق ـ بعد النفخة الثانية من قبورهم ـ ففي هذا الوقت لا أنساب بينهم ، ولايعطف بعضهم على بعض ؛ حتى يعرف كل منهم مصيره ، فإذا صار أصحاب الجنة إلى الجنة (أقبل بعضهم على بعض يتساءلون) إذا رأى بعضهم بعضا " .

وعلى هذا النحو يظل مقاتل يرد على افتراءات الزنادقة مطبقا تلك المقولة الشهيرة (لكل مقام مقال) ، ومبيناً تعنت هؤلاء الملحدين الذين

---

(١) أنظر الملطى : التنبيه والرد على أهل الاهواء والبدع د. محمد زينهم عزب – مكتبة مدبولى – الطبعة الاولى – ١٩٩٢ص ٤٤-٥٤ .

(٣،٢) انظر السابق ٤٤ -٤٩ .

يعرفون القرآن الكريم كما يعرفون أبناءهم (ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) كما قال الله تبارك وتعالى ٠

أما حديث مقاتل عن متشابه القرآن(١) فقد جاء من خلال حديثه عن كليات القرآن والمثال الأتى يوضح ذلك : يقول مقاتل : " كل شئ فى القرآن (جنات تجرى من تحتها الانهار) يعنى البساتين تجرى الانهار فى أسفل أشجارها وكل شئ فى القرآن (تجرى من تحتهم الأنهار) يعنى تحت منازلهم وغرفهم "(٢)

ويقول مقاتل : " (وما أدراك) كل شئ منه فى القرآن اى قد أخبرك ما هو ٠ وكل شئ فى القرآن : (وما يدريك) فلم يخبروك ما هو "(٣)

فمثل هذه الإشارات من مقاتل تنم عن ذوق فنى رفيع ، وعن بصر ببعض الفروق الدقيقة بين المتشابه من آيات القرآن الكريم ، فالمتتبع للنظم القرآنى يجد أن الله تبارك وتعالى ـ إذا قال " وما أدراك " فإنه ينبأ الرسول ﷺ نبأ صريحاً واضحاً عما استفهم عنه كما فى قوله تعالى (وما أدراك ما ليلة القدر) فقد سئل الرسول ﷺ عن ليلة القدر وهو لايدري عنها شيئا ـ وذلك تشويقا له وتنبيها لذهنه ـ ثم أجاب الله ـ تبارك وتعالى ـ عما سئل عنه بقوله (ليلة القدر خير من ألف شهر تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر سلام هى حتى مطلع الفجر) ٠

أما إذا قال الله ـ تبارك وتعالى " وما يدريك " فإن الإجابة لا تكون صريحة وغير محددة ، ولذلك نجد الآيات تأتى ب (لعل) بعد السؤال مباشرة ٠ وقد ورد السؤال ب " وما يدريك " ثلاث مرات فى القرآن الكريم هى " وما

---

(١) المقصود بالمشابه المتشابه اللفظى لا المتشابه الكلامى ٠

(٢) المصدر السابق ٥٥ ٠

(٣) السابق ٩٥ ٠

يدرك لعل الساعة تكون قريبا " وما يدريك لعل الساعة قريب " و " ومايدريك لعله يزكى أويذكر فتنفعه الذكرى " ففى الآيتين الأولى والثانية كانت الإجابة غير محددة موعد الساعة (يوم القيامة) وفىالآية الثالثة كانت الإجابة موحية بما سيحدث من طهارة ابن أم مكتوم واعتباره بالقرآن الكريم ٠

مقاتل والنحو :

يعد مقاتل أول من تناول بالبحث والدراسة باباً من أبواب النحو والبلاغة ألا وهو بيان معانى بعض الحروف والظروف والأفعال الناسخة والأسماء الموصولة وهى : أل - إلا - إلى - أم - أو - حتى - كأن - فى - اللام المكسورة - من - أدنى - حين - فوق - كان - ما ٠

وريادة مقاتل فى دراسة هذا الباب لاتأتى من سبقه الزمنى فقط ، بل تأتى من أنه قد درس هذا الباب دراسة مفصلة يفوق بها من أتوا بعده من النحاة والبلاغيين الأوائل مثل : الخليل ، وسيبويه ، والكسائى ، والأخفش ، وأبى عبيدة ، والفراء ، بل يفوق بعض من أفردوا الحروف بالتأليف وفى مقدمتهم الزجاجى صاحب كتاب " حروف المعانى " والرمانى صاحب كتاب " معانى الحروف " ٠

ومن الحروف التى بين مقاتل وجوهها فى القرآن الكريم الحرف " فى " فلها عدة وجوه :

الوجه الاول : فى يعنى مع ، فذلك قوله فى النمل (فى تسع آيات) يعنى مع تسع آيات نظيرها فى سورة نوح (وجعل القمر فيهن نورا) يعنى معهن نوراً (١) ٠

---

(١) الاشباه والنظائر ١٨٩ ٠

الوجه الثانى : فى يعنى على ، فذلك قوله فى طـه (ولأصلبنكم فـى جذوع النخل)(١) ، وقوله فيها أيضا (يمشون فـى مساكنهم) يعنـى يمـرون علـى قراهم (٢) ٠

الوجه الثالث " فى يعنى إلى ، فذلك قولـه فـى النسـاء (ألـم تكـن أرض اللـه واسعة فتهاجروا فيها) يعنى فتهاجروا إليها ؛ إلى المدينة(٣)

الوجه الرابع : فى يعنى عن ، فذلك قوله فى بنـى إسـرئيل (ومـن كـان فـى هذه أعمى) يقول من كان عن هـذا المعنـى الـذى ذكـره اللـه فـى هـذه الآيـة أعمى (فهو فى الآخرة أعمى) ويقول فهو عما ذكره الله من أمـر الآخـرة أعمى (وأضل سبيلا)(٤)

الوجه الخامس : فى يعنى عند ، فذلك قولـه فـى الشـعراء (ولبثـت فينـا مـن عمرك سنين) نظيرها فى هود لشعيب (وإنا لنراك فينا ضعيفا)(٥)

الوجه السادس : فينا يعنى لنا ، فذلك قوله فى آخر الحج (وجاهدوا فى اللـه حق جهاده) يقول : اعملوا لله حق عملـه ٠ كقولـه فـى العنكبـوت (والذيـن جاهدوا فينا) يعنى عملوا لنا (لنهدينهم سبلنا)(٦)

الوجه السابع : فى يعنى من ، فذلك قوله (ويوم نبعث فى كـل أمـة شـهيدا) وهم الأنبياء(٧)

مما سبق يتضح أن مقاتلاً يذهب الى أن الحرف "فى" قد ضمن معنى غيره٠ من الحروف (على - إلى - عن - من - اللام) والظـــروف (مع - عند)

(٢،١) الاشباه والنظائر ١٨٩ ٠

(٤،٣) السابق ١٩٠ ٠

(٥،٤) السابق ١٩١،١٩ ٠

(٧،٦) السابق ١٩٠ وقد ذكر المحقق أن الآية رقمها ٨٤ من سـورة النحـل ، وهـو خطـأ والصواب أنها الآية رقم ٨٩ من السورة نفسها ٠

وباب استعمال بعض الحروف والأدوات مكان بعض ـ كما يسميه ابن جنى، أو خروج الحروف عن معانيها الأصلية إلى معان مجازية ـ كما يسميه البلاغيون ـ باب مشهور لدى معظم النحاة والمفسرين والبلاغيين ، وهو باب يحتاج إلى إعادة نظر ، خاصة إذا كان الشاهد نصاً قرآنيا ؛ لأن هذا الباب " يتلقاه الناس مغسولا ساذجاً من الصنعة ، وما أبعد الصواب عنه وأوقفه دونه(١) ولأن لكل حرف من حروف المعانى وجهاً هو به أولى من غيره ، فلا يصح تحويل ذلك عنه إلى غيره إلا بحجة يجب التسليم لها(٢)

فليس من الدقة فى شئ أن نفسر الآيات القرآنية بتقدير متعلق وحرف جديدين لم يذكر منهما شئ ، كما فعل مقاتل ، أو أن نضمن المتعلق المذكور فى الآية معنى متعلق آخر يناسب الحرف المذكور ـ كما فعل ابن جنى ، وظن أنه بهذا يخلص باب استعمال الحروف بعضها مكان بعض من السذاجة .

ولكن يجب أن ننظر إلى ما استخدم فى النص القرآنى ونحاول أن نستوضح أسرار بلاغته فإذا استطعنا فبها ونعمت ، وإلا فالاعتراف بعدم العلم أولى ، فالمتأمل فى بلاغة النظم القرآنى يجد أنها تحتم أن يكون الحرف المذكور فى الآية . هو المقصود دون غيره من الحروف والأدوات ففى قوله تعالى (ولأصلبنكم فى جذوع النخل) نجد أن الحرف (فى) يفيد معنى لا يفيده الحرف (على) ؛ وذلك أن (على) يفيد مجرد الصلب فقط ، أما (فى) فهى تفيد أن الصلب يكون مصحوباً بعذاب شديد من فرعون لمن

---

(١) ابن جنى – الخصائص – محمد على النجار – الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩-٣٠٨/٢ .

(٢) ابن جرير الطبرى – جامع البيان فى تأويل القرآن – در الريان للتراث ١٩٨٧-١٠٣/١ .

كفروا به وآمنوا برب هارون وموسى ، بحيث إن المصلوب سيدخل فى جذع النخلة ـ من شدة الصلب والعذاب ـ حتى يحتويه الجذع ويكون له وعاء كما يكون الإناء وعاء للماء ٠

وقوله تعالى (فى تسع آيات) يختلف اختلافا كليا عن تفسيره " مع تسع آيات لأن الآية تقرر أن معجزة خروج يد موسى ـ عليه السلام– بيضاء من غير سوء واحدة من الآيات التسع التى أيدالله ـ تبارك وتعالى ـ بها موسى عليه السلام ـ أما التفسير فيقرر أن المعجزة السابقة زائدة على التسع أى أن المجموع يصبح عشر آيات ، والمشهور فى عدد معجزات موسى عليه السلام ـ أنها تسع لقوله (ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات) ٠

أما قوله تعالى : (ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها) فالتعبير ب (فيها) كما جاء فى الآية أبلغ من التعبير ب " إليها " كما يقال فى التفسير غالبا ؛ لأن (فيها) توحى بأن المهاجر إذا نوى الهجرة ابتغاء مرضاة الله ـ تبارك وتعالى ـ لا لغرض دنيوى ، فإن الله جلت قدرته ـ ييسر له سبل الهجرة فتكون الأرض غطاء له تحيط به فلا يراه أحد من الظالمين ولا يتمكن منه ، وتكون الأرض قطعة واحدة لاحواجز بينها ولا عوائق ، ولا عجب فى ذلك ، فالأرض لها طبيعة خاصة عبر عنها المولى عز وجل بأنها (أرض الله) وليست لأحد غيره ومن ثم فالأرض ٠ تكون مسخرة لخدمة ونجاة من هاجر إلى الله تبارك وتعالى ٠

وأما قوله تعالى (فلبثت فينا من عمرك سنين) فهو أبلغ من التفسير : ولبثت عندنا من عمرك سنين ؛ لأن فرعون يريد أن يمن على موسى عليه السلام وهذا يقتضى أن يكون لبث موسى كان فى بيت فرعون نفسه ، وليس عنده ؛ لأنه لو كان الأمر كذلك لما منَّ فرعون على موسى به ، فليس له فضل هنا وإنما الفضل لغيره ٠

وأما تفسير فى آية الإسراء فليس دقيقا لأن المقصود من الآية أعم مما ذكره مقاتل - ولا تحتاج إلى مثل هذا التأويل - كما قال بذلك الإمام القرطبى: " ومن كان فى هذه أعمى " أى فى الدنيا عن الاعتبار وإبصار الحق " فهو فى الآخرة " أى فى أمر الآخرة " أعمى " (١)

وأما تفسير الجهاد بالعمل فى قوله (وجاهدوا فى الله حق جهاده) فلامبرر له حيث إن الجهاد مقصود لذاته ، والجهاد نوعان - كما أخبرنا بذلك المصطفى ﷺ : جهاد أصغر وهو قتال الاعداء ، وجهاد أكبر وهو جهاد النفس ومن ثم فلا مندوحة للاحتجاج بأن الجهاد المقصود به العمل فى آية العنكبوت لأنها نزلت قبل فرض القتال - كما قال السدى وغيره (٢) لأن جهاد النفس مقصود من أول الدعوة وهو أكبر من قتال الأعداء - كما صرح الرسول ﷺ والمتأمل فى القرآن الكريم يجد أن الجهاد إذا ذكر متعلقه فأنه يكون " فى سبيل الله " ومن ثم يمكن فهم الآيتين على أنهما : الذين جاهدوا فى سبيلنا ،وجاهدوا فى سبيل الله حق جهاده ولم تذكر الآية " سبيل " إيجازا للعلم به.

مقاتل وعلم اللغة :

يعد مقاتل رائدا فى مجالات مختلفة من علم اللغة ، فهو أول من استخدم أسس المنهج الوصفى فى الدراسات اللغوية ، وهو أول من تناول بالدراسة التطبيقية قضيتين من القضايا البارزة فى علم اللغة : وهما قضية

---

(١) الجامع لاحكام القرآن - دار إحياء التراث العربى - بيروت - لبنان ١٩٨٤ - ص١٠ ص٢٩٨ .

(٢) انظر القرطبى : الجامع لاحكام القرآن ص١٣ ص٣٦٤ .

المشترك اللفظى ، وقضية الترادف فقد حدد مقاتل الظاهرة التى سيتناولها بالدراسة وهى " الوجوه والنظائر " وحدد البيئة اللغوية التى سيدرس من خلالها هذه الظاهرة وهى بيئة النص القرآنى ، وحدد الأسلوب الذى سيتعامل معه وهو النظم القرآنى المعجز ، وهو بهذا ملتزم بأبرز أسس المنهج الوصفى فى الدراسات اللغوية (١)٠

وقد عنى مقاتل بذكر الوجوه والنظائر من خلال الاستشهاد بالآيات القرآنية ، وكأنه يريد أن يقول : إن اللفظ الواحد له عدة معان أو وجوه لانستطيع التعرف عليها إلا من خلال السياق القرآنى وحده وهو بهذا الاستشهاد يتميز عن كثير ممن عالجوا قضية المشترك اللفظى بعده كالأصمعى عبد الملك بن قريب (ت ٢١٠ هـ) وأبى عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤ هـ) ، وأبى العميثل عبد الله بن خليد (ت ٢٤٠ هـ) وكراع : على بن الحسن الهنائى (ت ٣١٠ هـ) فهؤلاء لم يكونوا يهتمون بالشواهد من القرآن أو الأحاديث النبوية أو الشعر والنثر إلا قليلا ٠

وقد عالج مقاتل قضية المشترك اللفظى ـ كما يسمى لدى علمائنا العرب ـ من خلال حديثه عن الوجوه ، فقد ذكر ان اللفظ الواحد له عدة وجوه أى معان أو مدلولات ، لابد أن يكون المفسر على علم بها ، وهو بهذا يشير إلى جوهر تعريف المشترك اللفظى الذى عرف بأنه : " اللفظ الواحد الدال على معنيين مختلفين فأكثر دلالة السواء عند أهل تلك اللغة(٢) أو بأنه : " ما

---

(١) انظر د٠ كمال بشر – دور الكلمة فى اللغة – مكتبة الشباب ١٩٩٢ – ص١٢٤ ، ص١٢٥ ٠

(٢) السيوطى ٠ المزهر فى علوم اللغة – محمد أبو الفضل ابراهيم وآخرون – دار التراث ط ٣٦٩/١٣ ٠

وضع لمعنى كثير بوضع كثير ، كالعين لاشتراكه بين المعانى . ومعنى الكثرة مايقابل الوحدة لا ما يقابل القلة ". (١)

والمشترك اللفظى كما سماه علماؤنا العرب ـ أو الوجوه ـ كما سماه مقاتل ومن تبعه من مؤلفى الوجوه والنظائر كالدامغانى والثعلبى ـ كلفظ العين مثلاـ يسميه العالم اللغوى " ستيفن أولمان " تعدد المعنى ويفرق بينه وبين المشترك اللفظى فيقصر المشترك اللفظى على الكلمات المتحدة الصيغة المختلفة المعنى مثل بمعنى Flower زهرة و Flour بمعنى دقيق (٢) ومن أمثلته فى لغتنا العربية : سميته يحيى ليحيا .

ومن أمثلة المشترك اللفظى أو تعدد المعنى لدى مقاتل " المشى " فله عدة وجوه أو معان هى :

١ـ المشى يعنى المضى ، فذلك قوله فى البقرة ﴿ كلما أضاء لهم مشوا فيه ﴾ يعنى مضوا .(٣)

٢ـ المشى يعنى هدى ، فذلك قوله فى الأنعام ﴿ وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس ﴾.(٤)

٣ـ المشى يعنى الممر ، فذلك قوله فى تنزيل السجدة ﴿ أولم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم ﴾ يقول :يمر أهل مكة على قراهم ، نظيرها فى طه ﴿ أفلم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم ﴾ يقول يمر أهل مكة على قراهم .(٥)

---

(١) على بن محمد الجرجانى – التعريفات – دار الكتاب العلمية – بيروت لبنان – الطبعة الاولى ١٩٨٣ ص٢١٥ .

(٢) انظر : دور الكلمة فى اللغة – ترجمة د. كمال بشر – ص(١٢٨،١٢٩،١٣٩،١٤٦)

(٣،٤،٥) الأشباه والنظائر ١٠٤ .

٤ـ المشى بعينه : فذلك فى قوله فى الفرقان ﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً ﴾ يعنى المشى بعينه ٠(١)

فمقاتل يرى أن للمشى أربعة وجوه ، وجه منها المشى بعينه وهو ما يسمى لدى علماء اللغة المحدثين المعنى المركزى ، ويسمى لدى علماء البلاغة المعنى الأصلى ، أما بقية الوجوه فهى معان فرعية تستمد من السياق القرآنى الذى يستخدم فيه لفظ " المشى " ، ومقاتل بتحديد المعنى الأصلى أو المركزى من بين المعانى الفرعية التى يستخدم فيها اللفظ يتميز عن غيره ممن تناولوا قضية المشترك اللفظى ــ الذين سبق أن أشرت إلى بعضهم ــ وعن غيره ممن نقلوا عنه فى " الوجوه والنظائر " كالإمام الزركشى والإمام السيوطى ، فهؤلاء لم يكونوا يهتمون بتحديد المعنى الأصلى أو المركزى للفظ من بين المعانى المتعددة التى يستعمل فيها ، كما فعل مقاتل فى مواضع ليست بالقليلة فى كتابه " الأشباه والنظائر " ٠(٢)

وقد عد مقاتل " الأضداد " من الوجوه والنظائر أى من المشترك اللفظى أو تعدد المعنى من خلال حديثه عن بعض الألفاظ التى استخدمت فى المعنى وضده مثل : الظن ـ الاشتراء ـ الآخرة ـ النار ـ الفرح ٠

فالظن له ثلاثة وجوه :

---

(١) انظر السابق ١٠٤،١٠٥ ٠

(٢) انظر الأشباه والنظائر (١٠٢،١٠٥،١٥٣،١٥٤،١٦٦،١٧٥،١٧٨،٢٠٤،٢٠٥،٢٢٦، ٢٢٨،٢٣٥،٢٣٦،٣٢١،٣٢٢،٣٢٦،٣٢٧)

١- الظن يعنى اليقين ، فذلك قوله فى ص (وظن داود أنما فتناه) يعنى أيقن داود أنما ابتليناه ٠(١)

٢- الظن يعنى الشك ، فذلك قوله فى حم الجاثية (قلتم ما ندرى ما الساعة إن نظن إلا ظنا) يعنى إن نشك إلا شكا (وما نحن بمستيقنين)(٢)

٣- الظن يعنى التهمة ، فذلك قوله فى الأحزاب (وتظنون بالله الظنونا) يعنى اتهام النبى ﷺ فيما أخبرهم به من أن الله يفتح عليهم ٠(٣)

فمقاتل يرى أن الظن يستخدم فى ثلاثة معان من بينها معنيان متضادان وهما : اليقين والشك ٠ والمتأمل فى القرآن الكريم يجد أن الظن بمعنى اليقين لايستخدم مع الله تبارك وتعالى أبداً ، إنما يستخدم مع البشر ، مما يدل على أن بين العلم والظن بمعنى اليقين فرقا كبيراً و هو أن العلم هو " اعتقاد الشئ على ماهو به على سبيل الثقة "(٤) أما اليقين فهو " سكون النفس وثلج الصدر بما علم ، ولهذا لايجوز ان يوصف الله تعالى باليقين"(٥)

وإذا كان تناول مقاتل للوجوه أو المشترك اللفظى أو تعدد المعنى صريحا وواضحاً فإن حديثه عن النظائر ، ليس صريحاً ومن ثم فلابد من معرفة ، المقصود بالنظائر ، هل النظائر تعنى الآيات الأخرى التى يستخدم فيه اللفظ بنفس المعنى ؟

---

(١) السابق ٣٢٧ ٠

(٢) السابق ٣٢٧،٣٢٨ ٠

(٣) السابق ٣٢٨ ٠

(٤،٥) ابو هلال العسكرى - الفروق اللغوى - حسام الدين القدسى - مكتبة القدسى ١٩٩٤ ص٦٣ ٠

إن الباحث يجد فى كتاب مقاتل مايؤيد هذا التفسير ، ففى تفسير مقاتل للمشى بمعنى المرور فى الآية السادسة والعشرين من سورة السجدة يقول مقاتل : " نظيرها فى طه " يقصد الآية الثامنة والعشرين بعد المائة ٠ لكن بعض العلماء كالزركشى والسيوطى٠ يعرفان النظائر بأنها "كاللألفاظ المتواطئة" أى المترادفة التى تستعمل بمعنى واحد٠ واذا نظرنا فى كتب "الوجوه والنظائر " عامة لانجد فيها حديثا يحدد المقصود بالنظائر, وهنا نتسائل: لماذا حملت هذه الكتب هذا الاسم المزدوج: الوجوه والنظائر" او الاشباه والنظائر ؟

يرى الدكتور أحمد مختار عمر" أن كل مشترك لفظى يحمل فى داخله ترادفا٠ فاذا قلنا : إن اللسان له أربعة أوجه: اللغة, والدعاء, والعضو المعروف, والثناء الحسن, فمعنى هذا أن اللسان له أربعة وجوه أو أربعة معان فهو مشترك لفظى , وهو فى نفس الوقت يملك عدة نظائر أو مترادفات, اللسان مع اللغة يكون ترادفا،وهومع الدعاء يكون ترادفا ثانيا، ومع الثناء الحسن يكون ترادفا ثالثا٠٠ وهكذا "

وهذه ملاحظة جيدة لها وجاهتها، ولكنها توسع دائرة الترادف ، وتدخل فيها ماليس منها ، بحيث يصبح عدد المترادفات مساويا لعدد الوجوه ، فإذا كان بين الحرث والثواب ، وبين الدين والملة ، وبين المشى والمضى ، وبين ألم تر وألم تعلم ، وبين الهدى والبيان ترادف ، فليس بين الحرث وفروج النساء ، وبين الكفر والبراءة ، وبين الحسنة والتوحيد ترادف(١) وإنما بين هذه الألفاظ علاقات من نوع آخر كالعلاقة بين التصريح والكناية ، وبين الحقيقة والمجاز ، وبين الدلالة اللغوية والدلالة الشرعية وغير ذلك من العلاقات ٠

---

(١) أنظر الأشباه والنظائر بالترتيب :(٣٢٧/١٣٤/١٠٤/٢٣٦/٢٣٧) ٠

وقد عرض مقاتل لكثير من الألفاظ المترادفة فى القرآن الكريم بصورة واضحة لامجال للاجتهاد فى البحث عنها من خلال حديثه عن الكليات فى القرآن الكريم ٠

ومن أمثلة ذلك قوله : " كل شئ فى القرآن عسى فهو من الله واجب ٠ وكل شئ فيه (الحمد لله) يعنى الشكر لله ٠٠ وكل شئ فيه (إفكا) يعنى كذبا وكذلك (المؤتفكات) يعنى المكذبات(١) وكل شئ فى القرآن (نبأ) يعنى حديثا ٠(٢)

فمقاتل يرى أن عسى ترادف الوجوب ، وأن الحمد لله ترادف الشكر لله ، وأن الأفك والكذب مترادفان ، وأن النبأ والحديث مترادفان أيضا ٠ ومقاتل فى حديثه عن الوجوه والنظائر أو المشترك اللفظى والترادف يعد رائدا لمن أتى بعده من المفسرين واللغويين الذين يؤمنون بالترادف ويفسرون الألفاظ القرآنية بما يؤدى معانيها من المترادفات ، ولكن بعض علمائنا الأجلاء لم يسيروا فى هذا الطريق ، وإنما حاولوا أن يبرزوا الفروق الدقيقة بين الألفاظ المترادفة مستلهمين فى ذلك بلاغة النظم القرآنى ، ذلك النظم الذى له خصائص تميزه عن كلام البشر ، ومن أبرزها أن كل لفظ بل كل حرف له وظيفة لايؤديها إلا هو ، ومن هؤلاء العلماء الذين ألفوا كتبا فى الفروق بين الألفاظ وصلت إلينا : ابن فارس فى كتابه " الصاحبى فى فقه اللغة " ، والثعالبى فى كتابه " فقه اللغة وسر العربية " ، والباقلانى فى كتابه (إعجاز القرآن) وأبو هلال العسكرى فى كتابه (الفروق اللغوية) والشريف على بن محمد الجرجانى فى كتابه (التعريفات) وأبو البقاء فى

---

(١) الملطى – التنبيه والرد على أهل الأهواء ص٥٦ ٠

(٢) السابق ص٥٧ ٠

كتابه (الكليات) وقد جمع معظم ما ورد من الفروق بين المترادفات من الكتب السابقة ٠ وغيرها من آثار العلماء الأول كالجاحظ والفراء وأبى عبيدة وثعلب وابن الأنبارى والمبرد ـ الاب هنرى كولامنسى اليسوعى فى كتاب (فرائد اللغة فى الفروق) ومن ثم فعلى الباحثين المعاصرين ألا يكتفوا بعرض وجهات النظر فى قضية الترادف ٠ وإنما عليهم ان يواصلوا السير على نهج من سبقوهم ويكملوا ما مابدأوه فى هذا المجال ٠ فالمتأمل فى النظم القرآنى المعجز يجد ان هناك فروقا دقيقة لايستطيع الوصول إليها إلا من كانت له بصيرة ببلاغتنا العربية ، وكان على اتصال دائم وفكر دائب بالقرآن الكريم، فبين الحمد والشكر فرق " فالشكر هو الاعتراف بالنعمة على جهة التعظيم للمنعم ، والحمد الذكر بالجميل على جهة التعظيم المذكور به ايضا ، ويصح على النعمة وغير النعمة ، والشكر لايصح على غير النعمة٠٠الإعتماد فى الشكر على ما توجبه النعمة وفى الحمد على ما توجبه الحكمه ، ونقيض الحمد الذم إلا على الإساءة ٠ ويقال الحمد لله على الإطلاق ، ولايجوز ان يطلق إلا لله ، لأن كل إحسان فهو منه فى الفعل أو التسبيب ٠(١)

وبين الإفك والكذب فرق دقيق أيضا هو " أن الكذب اسم موضوع للخبر الذى لا مخبر له على ما به (٢) أما الافك فهو " الكذب الفاحش القبح مثل الكذب على الله أو على رسوله او على القرآن ومثل قذف المحصنة وغير ذلك مما يفحش قبحه(٣)

وبين النبأ والحديث فرق هو " أن الحديث فى الاصل هو ما يخبر به الإنسان عن نفسه من غير أن يسنده إلى غيره ، فسمى حديثا ؛ لأنه لا تقدم

---

(١) أبو هلال العسكرى – الفروق اللغوية ص١٩٩ ٠

(٣،٢) السابق ٣٣ ٠

له(١) أما النبأ فهو الخبر العظيم الشأن " ولايكون إلا للإخبار بما لا يعلمه المخبر"(٢)

وبين الدين والملة فرق " أن الملة اسم لجميع الشريعة ، والدين اسم لما عليه كل واحد منه(٣) والدين ما يذهب إليه الإنسان ويعتقد أنه يقربه إلى الله وان لم يكن فيه شرائع مثل دين أهل الشرك ، وكل ملة دين وليس كل دين ملة ٠ واليهودية ملة ، لأن فيها شرائع ، وليس الشرك ملة" (٤)

وبين الهداية والإرشاد فرق " أن الإرشاد إلى الشئ هو التطريق إليه والتبيين له ٠ والهداية هى التمكن من الوصول إليه ٠(٥) وبين الهداية والبيان فرق هو " أن البيان - فى الحقيقة - إظهار المعنى للنفس كائنا ما كان فهو فى الحقيقة من قبيل القول ، والهدى بيان طريق الرشد ليسلك دون طريق الغى"(٦)

وهكذا نرى أن مقاتل بن سليمان كان واحداً من الرواد الأوائل الذين تبلورت على أيديهم دراسة البلاغة القرآنية ٠

(٢،١) السابق ٣٩ ٠

(٤،٣) السابق ١٨١ ٠

(٦،٥) السابق ١٧٢ ٠